

## مساهمته الأثواركيولوجي في الدراسات النباتية في السودان

د.فائز حسن\*

### ملخص البحث :

إن الاستمرارية الثقافية في أوجه الحياة اليومية في المجتمع السوداني ، وأساليب الحياة وأنماطها الضاربة الجذور في القدم يمكن ملاحظتها بسهولة، وبتوافر خلفية معرفية عن الحضارات و المجتمعات القديمة يمكن للآثاري بسهولة إيجاد مقارنة بين الماضي والحاضر لكن قليل جداً من الآثاريين العاملين في السودان انتبهوا لذلك . تتناول هذه الورقة دور الدراسات الإثنوأثرية في حل بعض المعضلات الأثرية و المشاكل البحثية المتعلقة بحضارة نبتة في السودان .

### **Abstract**

Cultural continuity and subsistence patterns of life within Sudanese community, could easily noticed. According to the knowledge of the society, archaeologists can compare between past and present, which is rare in Sudan archaeology.

This research deal with how Ethno archaeology can help in solving some archaeological problems, specially Napatan civilization.

### 1/ الإثنوأركيولوجيا بداياتها وتعريفاتها:-

كما هو معروف تعتمد دراسة المواد الأثرية بصورة خاصة على التشابهات و المقارنات Analogy ، التي تستخدم في تصنيف المواد الأثرية ووضعها في إطارها الزمني و المكاني في السياق العام للحضارات القديمة ، وهو ما يعرف بالتفسير الأثاري Archaeological Interpretation ، ويعتمد الآثاريون في تفسير السجل الأثاري على معرفتهم الدقيقة التي تشمل كل ما قرأوه ورأوه و سمعوا به عن المواد المجتمعات المراد دراستها.

كانت الفكرة العامة لاستخدام الإثنوغرافيا في علم الآثار تنحصر في مفهوم أنه إذا عمل الباحث الأثاري في موقع كان للمجتمع المحلي حوله ثقافة قديمة حية متواصلة في نفس السياق الاقتصادي و البيئي القديم ، وأن الثقافة المعاصرة مشتقة أو منحدره من الثقافة القديمة ، فإن دراسة المجتمع الحالي وثقافته المادية يمكن أن تعطي نتائج باهرة في تفسير الظواهر و المعطيات الأثرية في الموقع ، إذ أن في دراسة وملاحظة السكان الحاليين تقليل للجهد الذي يبذله الأثاري في تفسير المواد الأثرية .

\* محاضر بجامعة وادي النيل - السودان.

إن هناك ست مجالات رئيسية للإثنوآركيولوج<sup>١</sup>، هذه المجالات هي بمثابة الإطار العام الذي يضبط حركة وأهداف الأبحاث الإثنوآركيولوجية وهي

- ١/ دراسة التحولات الثقافية و الطبيعية.
- ٢ / دراسة عناصر محددة من الثقافة المادية.
- ٣ / دراسة أنماط السلوك الثقافي وبقاياه المادية.
- ٤ / دراسة الثقافة المادية وعلاقتها بالتنظيم الاجتماعي.
- ٥ / دراسة العلاقة بين الهوية والثقافة المادية والحدود العرقية و اللغوية و القبلية.
- ٦ / تأسيس الفرضيات العلمية القابلة للاختبار مثل ما إن كانت بعض الظروف أو الظواهر المعروفة حالياً موجودة في مجتمع قديم.

أن هناك نوعين من الأبحاث الإثنوآركيولوجية الميدانية<sup>٢</sup>، النوع الأول هو الأبحاث التي يجريها الأثاريون أثناء حفرياتهم في موقع ما، في أيام محددة من جدول العمل أو في عطلات نهاية الأسبوع، والهدف الأساسي من هذا النوع من الأبحاث تكملة السجل الأثاري بحل مشكلة بحثية صغيرة، ويجرى عن طريق تصميم مشروع بحثي متعدد الخطوات ينفذ خطوة تلو الأخرى حتى نهاية برنامج البحث. في مثل هذا النوع من المشاريع عادة تستقى المعلومات من رواة هم في الغالب من السكان المحليين الذين يعملون عمال في الحفريات، بجانب ملاحظة السلوك البشري في المنطقة المحيطة بموقع الحفريات للاستفادة منها في تفسير المشكلة البحثية.

النوع الثاني هو ما يعرف بالأبحاث الإثنوآركيولوجية الميدانية المنتظمة وعادة يكون صالحاً للاستخدام في حل المشاكل البحثية الكبيرة أو في حالة فشل النوع الأول في حل المشاكل البحثية، أو إذا رأى الباحثون أنهم يحتاجون إلى مجهود مضاعف، فيتم تصميم برنامج أبحاث إثنوآركيولوجي منتظم يجرى في وقت آخر غير وقت الحفريات الأثرية، حتى يكون الباحثون متفرغون تماماً. وهنا لا بد أن يدرك الباحثون أن النشاطات البشرية في منطقة الدراسة تختلف باختلاف مواسم السنة.

## ٢ / الدراسات الإثنوآركيولوجية في السودان :-

إن الاستمرارية الثقافية في أوجه الحياة اليومية في المجتمع السوداني، وأساليب الحياة وأنماطها الضاربة الجذور في القدم يمكن ملاحظتها بسهولة، وبتوافر خلفية معرفية عن الحضارات و المجتمعات القديمة يمكن للأثاري بسهولة إيجاد مقارنة بين الماضي و الحاضر لكن قليل جداً من الأثاريين العاملين في السودان انتبهوا لذلك إن صفة

1 Kendall,T. Ethnoarchaeology in Meroitic Studies . Rome. 1984.

2 David.N &Kramer,C. Ethnoarchaeology in Action. Cambridge.2001

الاستمرارية الثقافية لا تنطبق فقط على المجتمعات السودانية المعاصرة، وإنما أيضاً خلال الفترات القديمة كانت هذه الصفة موجودة.

إن أول أثاري أجرى دراسة إثنوآركيولوجية في السودان هو جورج رايزنر عام ١٩١٣م ، أثناء حفرياته في كرمة ، حيث لاحظ التشابه الكبير بين فخار حضارة كرمة الأحمر المصقول ذو الفوهة السوداء ، وبين فخار كرمة المحلى المصنوع باليد ذو الفوهة السوداء أيضاً ، والذي كان يصنع أثناء حفرياته في ١٩١٣-١٩١٦م ، فاستأجر امرأة من كرمة تعمل في صناعة الفخار وطلب منها أن تصنع له قطعاً فخارية أمامه ، وقد تفاجأ بأن التقنيات القديمة لصناعة الفخار في فترة حضارة كرمة (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق.م)، ما زالت مستخدمة وشائعة حتى وقت إجراء الحفريات في كرمة في الفترة من ١٩١٣-١٩١٦م ، إلا أن دراسته لم تر النور إلا في العام ١٩٦٦م لعدة أسباب منها أنه استغرق وقتاً طويلاً في دراسة المواد التي تحصل عليها من الحفريات، ثم اندلاع الحرب العالمية ، وأخيراً وفاته ، فقامت زوجته بنشرها لاحقاً<sup>٣</sup> .

منذ قديم الأزمان وحتى منتصف القرن الماضي ، ظل سكان السودان بعيدين عن المتغيرات الثقافية و الثورة الصناعية التي اجتاحت العالم منذ ثلاثة قرون خلت ، حيث كانوا يعيشون نمط حياة هو نفسه الذي كان يعيشه أسلافهم صانعي الحضارات القديمة في المنطقة ، وخلال تلك الفترة أيضاً كانت علاقات السودان الخارجية محدودة ومنحصرة نوعاً ما في التبادل التجاري الخفيف الذي لم يرق لمستوى تبادل الثقافات وانتشارها . عامل آخر في غاية الأهمية هو أن مناخ وبيئة إقليم النيل الأوسط قاسية على من هم من خارجها . هذا مع عدم وجود الطرق المعبدة التي تربط السودان مع بعضه البعض أو مع جيرانه القريبين ، كل هذه العوامل السابقة الذكر أدت إلى أن يكون السودان من أكثر الدول محافظة على الثقافات القديمة ، ونفس هذه العوامل أيضاً ساعدت في أن يكون السودان متعدد السحنات و الأعراق و اللهجات على مر التاريخ وليس الآن فقط .

### ٣/ حضارة نبتة:-

بحلول فترة القرن الثامن ق.م ظهرت قوة سياسية جديدة في منطقة سهل دنقلا عرفت باسم مملكة كوش ، وكان مركزها الرئيس إقليم نبتة الذي يقع أعلي سهل دنقلا وأسفل الشلال الرابع ، وهذه المملكة اتسع نفوذها و سلطتها السياسية ليس فقط في منطقة سهل دنقلا و المناطق التي تقع إلى الشمال منه ، بل أيضاً امتد حتى مناطق وسط السودان ، كما أن ملوكها الذين تعتبر أصولهم غامضة بعض الشيء استطاعوا في فترة لاحقة أن يسيطروا على معظم أراضي مصر المجاورة لهم من الشمال ،

3 Reisner,G.A. “ Black Topped Pottery “. JARCE\_5 pp.7-10. 1966

وحكموها فيما يعرف باسم الأسرة XXV وامتدت فترة احتلالهم لها لما يقرب من القرن من الزمان ، منذ منتصف القرن الثامن ق.م وحتى منتصف القرن السابع ق.م عندما طردهم الآشوريون منها ، ويعتبر الحدثين من أعظم الأحداث التي مرت بوادي النيل قديماً . وخلال فترة احتلالهم لمصر احتكوا بالثقافة الفرعونية وأخذوا منها العديد من الأنماط التي عاشت مع الثقافة النوبية في تجانس تام.

إن تاريخ مملكة كوش ينقسم إلى فترتين رئيسيتين هما الفترة النبتية و الفترة المروية ، و السبب الرئيسي في هذه التسميات أن المملكة بدأت أولاً في إقليم نبتة ثم انتقل الدفن الملكي والعاصمة السياسية إلى مروى جنوباً ، مما حدا بهذا الانتقال ليكون الفاصل بين الفترتين. وهذا الانتقال لم يكن سياسياً فقط وإنما صاحبه أيضاً انتقال ثقافي كامل وتحول شبه كامل نحو الثقافة الأفريقية ، هذا على الرغم من أن مدينة مروى نفسها كانت مركزاً هاماً خلال الفترة النبتية ، ويعتقد بعض الأثريين أنه ليس هناك انتقال وأن مروى كانت منذ البداية العاصمة السياسية بينما نبتة هي العاصمة الدينية للمملكة °، إلا أن الاختلافات و التغييرات الثقافية بين الفترتين تجعل من الصعوبة بمكان تجاوز الانتقال.

على الرغم من وجود عدد معتبر من النصوص المكتوبة التي ترجع لفترة مملكة كوش ، إلا أن معرفتنا بها ما زالت ضئيلة نوعاً ما ، خاصة بالفترة النبتية التي ما تزال بها العديد من الفترات الغامضة . أثرياً فإن معظم معلوماتنا أتت من أعمال رايزنر الذي نقب في الجبانة الملكية لهذه الفترة ووضع التسلسل التاريخي ووراثة العرش ، بالإضافة إلى بعض الحفريات في مواقع أخرى، ومع أن هذا العمل الذي قام به رايزنر هو الأول و الرائد، إلا أنه يعتبر إطاراً خارجياً يحتاج إلى المزيد من الدراسات المتأنية لتكشف لنا عما بداخل هذا الإطار .

إن المصادر التاريخية المكتوبة لم تفصح عن تفاصيل حضارة نبتة ، كما أن المواد الأثرية لم تستطع تعطينا أن تمدنا بالكثير ، وما تزال معرفتنا بسهل دنقلا عقب انهيار السلطة المركزية في عهد احتلال المملكة المصرية الحديثة محدودة جداً. وقد احتوى هذا الإقليم على أهم مواقع الاستيطان النبتية وكذلك المركز الديني الرئيسي لها عند جبل البركل ، وجبانتي ملكيتين في الكرو ونوري ، بالنسبة للكرو فهي لم تكن جبانة فقط ، فهي أيضاً مدينة مأهولة بالسكان ، حيث عثر علي بقايا مباني أسفل الجبانة بمحاذاة النيل.

4 Edwards,D.N. The Nubian Past: An Archaeology of the Sudan.London. 2004.

5 Hakem,A.M.A. Meroitic Architecture : A background of an African civilization. Khartoum. 1988.

#### ٤/ مكان ميلاد الملك الارا دراسة حالة:

لقد أجرينا دراسة إثنوآثرية تتعلق بمكان ميلاد الملك الارا الذي عرف بأنه مؤسس الأسرة الملكية النبتية الحاكمة، ولقد أشارت مسلة نتويج الملك نستاسن المعروفة باسم مسلة نستاسن للسنة الثامنة من حكمه، التي عثر عليها في دنقلا في عام ١٨٥٣م إلى مكان ميلاد الارا، والمسلة موجودة الآن في متحف برلين للمصريات، تحت الرقم ٢٢٦٨، ويبلغ طولها ٦٣،٦٣ متر وعرضها ٢٧،٢٧ متر وسمكها ٢٩٨،٢٩٨ متر، ويتحدث النص بصورة عامة عن اختيار الإله آمون لنستاسن كملك لكوش ومراسيم رحلة نتويج، بالإضافة إلى الانتصارات العسكرية التي حققها الملك ضد أعدائه، إلا أن الجزء الذي يهمننا في هذا النص هو الجزء المتعلق برحلة النتويج ومرورها بالمنطقة التي ولد فيها الارا مؤسس الأسرة.

يتحدث الملك عن رحلة نتويجه التي بدأت من مروى مروراً بمنطقة I-s-d-r-t و منطقة ttt والتي يصفها قائلاً:

" وصلت t3tt المكان العظيم، الجنة التي ولد فيها الملك العظيم الارا وعندما وصلت إلى هذا المكان (.....) هذا منزل الإله آمون، أتى إلى كل كهنة معبد آمون نبتة .... وأمرتهم أن يعبروا النهر ووصلوا تمجيداً لي ولأبي آمون نبتة وعبرت النيل بواسطة مركب أعدت لي خصيصاً إلى منزل رع وخرجت من المركب وامتطت سهوة جواد عظيم"<sup>٦</sup>

نستنتج من النص أعلاه أن هناك منطقة في وسط الطريق بين نبتة ومروى هي d-r-st-l-s والتي تقع في حافة صحراء بيوضة، وفي نهاية الطريق عند التقائه بالنيل توجد منطقة ttt والتي ولد فيها" الارا" وتقع على الضفة اليسرى للنيل، وبها ما يعرف بمنزل آمون، وهي أيضا نقطة لعبور النيل بالضفة اليمنى التي توجد بها نبتة" جبل البركل"، بمعنى آخر إن منطقة ttt هذه إما صنم أبي دوم أو منطقة أخرى مجاورة لها، مع العلم أن صنم أبي دوم لم تؤسس إلا في عهد تهاركا.

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو أين تقع ttt هذه اليوم؟. وهل ذكرت بهذا الاسم في أي نص آخر؟. بتفحص المصادر المكتوبة نجد أن الملك حارسيوتف ذكر ttt هذه في مسلته المعروفة باسم حوليه حارسيوتف للسنة الخامسة والثلاثين من حكمه، التي عثر عليها في معبد آمون الكبير B.500 والموجود حالياً بالمتحف المصري بالقاهرة، ويذكر فيها أنه بعد زيارته لكل من نبتة، الكوه، تبو قام زيارة إلى ttt ويقول (Eide,et.al.)<sup>٧</sup>

"ثم ذهب إلى باستيت في ttt وتحدثت عما قاله آمون بنبتة".

6 Eide,T.et.al. Fontes Historiae Nubiorum Vol. II. Bergen 1996:476-477

7 (Eide,et.al. ibid 438-456

إن الوصف الذي أعطاه "حارستيو تيف" يختلف قليلاً عن ما ورد عند "نستاسن" ، إذ لم يذكر الأخير قداس باستيت هذا ومن المحتمل قد يكون قد أنشئ في فترة لاحقة ، كما أن حارستيو تيف ذكر المنطقة على أنها آخر محطة في رحلته هذه ، وهذا يتوافق مع برنامج رحلته للتنج والذي ينتهي في صنم أبي دوم، إذن أين تقع ttt هذه؟ وهل هي قائمة الآن؟ أو هل استطاع أي من الأثريين القدامى والمحدثين بالتعرف على هذه المنطقة باعتبارها مكان أصل الأسرة الحاكمة وموطن انحدارها، وهذا بدوره يمكن أن يقود إلى حقائق هامة حول وصول حضارة نبتة.

لقد أوضح توروك أن ttt هذه هي أم رويم التي تقع في قلب صحراء بيوضة<sup>8</sup> لكن نجد أن الأوصاف التي ذكرت في مسلة نستاسن لا تنطبق على هذه المنطقة ، فأم رويم هذه تقع في صحراء بيوضة و ttt تقع على ضفة النيل اليسرى قبالة نبتة ومنها يعبر النيل إلى نبتة ، كما أن أم رويم لم توجد فيها آثار نبتة، بل مروية<sup>9</sup> .

من خلال تواجدنا في مدينة كريمة لخمس سنوات أثناء الدراسة الجامعية ومن خلال الأعمال الميدانية التي شاركنا فيها في الشلال الرابع ومنطقة جبل البركل ، توفرت لدينا العديد من المعلومات عن المنطقة، وكان نتيجة ذلك أن عرفنا قرية صغيرة تقع إلى الشمال من صنم أبي دوم مباشرة لها ثلاثة أسماء هي: ألال، الرجيلة، وديم ود حاج.

إن أول ما استوقفنا لماذا هذه الثلاثة أسماء لهذه المنطقة ومن أين أنت؟ ومن المعروف الشيخ عبد الرحمن ود حاج الذي استوطن هذه القرية منذ فترة الفونج وله قبة بالقرية وله مسجد وخلوة جميعها قائمة حتى الآن ، أما الاسم الثاني للرجيلة نتيجة للفرع الصغير من وادي أبي دوم الذي يمر بمنتصف القرية إذ يسمى العرب مثل هذه النوع الصغير من الوادي باسم الرجيلة، أما الاسم الثالث ألال هو غير واضح المعنى ، وسألنا معظم سكان القرية عن اسم ألال وأجابوا بعدم معرفتهم له ، ومن الواضح أن ألال كلمة نوبية على الأقل نوبية محرفة ، وبالتالي يتضح أن أقدم هذه الأسماء الثلاثة لهذا المنطقة هو الاسم الثالث ألال ، تقع ألال على سهل منبسط على النيل، ( خريطة رقم ١٠٢ ) ولا يفصلها عن صنم أبي دوم سوى أراضي خالية تمتد حوالي ٢ كيلو، وإدارياً تتبع لمدينة مروى الحديثة، ويحدها النيل الذي يجري من الاتجاه الشمالي الشرقي إلى الاتجاه الجنوبي الغربي من الشرق صحراء بيوضة التي يأتي منها الفرع الصغير من وادي أبي دوم والذي يحاذيه الطريق الصحراوي إلى دير الغزالي ومنه إلى مناطق الدامر وشندي ومروى القديمة ، و تمتاز قرية ألال بارتفاع ضفاف النيل حولها وهذا له دور كبير حتى وقت قريب عندما يكون فيضان النيل عالياً، يتعذر

8 Török,L. The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush And Her Myth of the State in the First Millennium B.C. Lille.1995. :70

9 Edwards. Op.cit.120

عبور النيل إلا من الأرا، فهي النقطة الوحيدة الصالحة لعبور النيل في الفيضان العالي، ولقد لاحظنا ذلك في فيضاني عام ١٩٩٤-١٩٩٨م، وهذا يطابق ما ذكره نستانس في مسلته الصغيرة السابقة الذكر، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن منسوب النيل قديماً في فترة نبتة كان عالياً جداً ، تماماً كما منسوبه في حالة الفيضان العالي، كما دلت على ذلك مسلة تهاركا في الكوة .

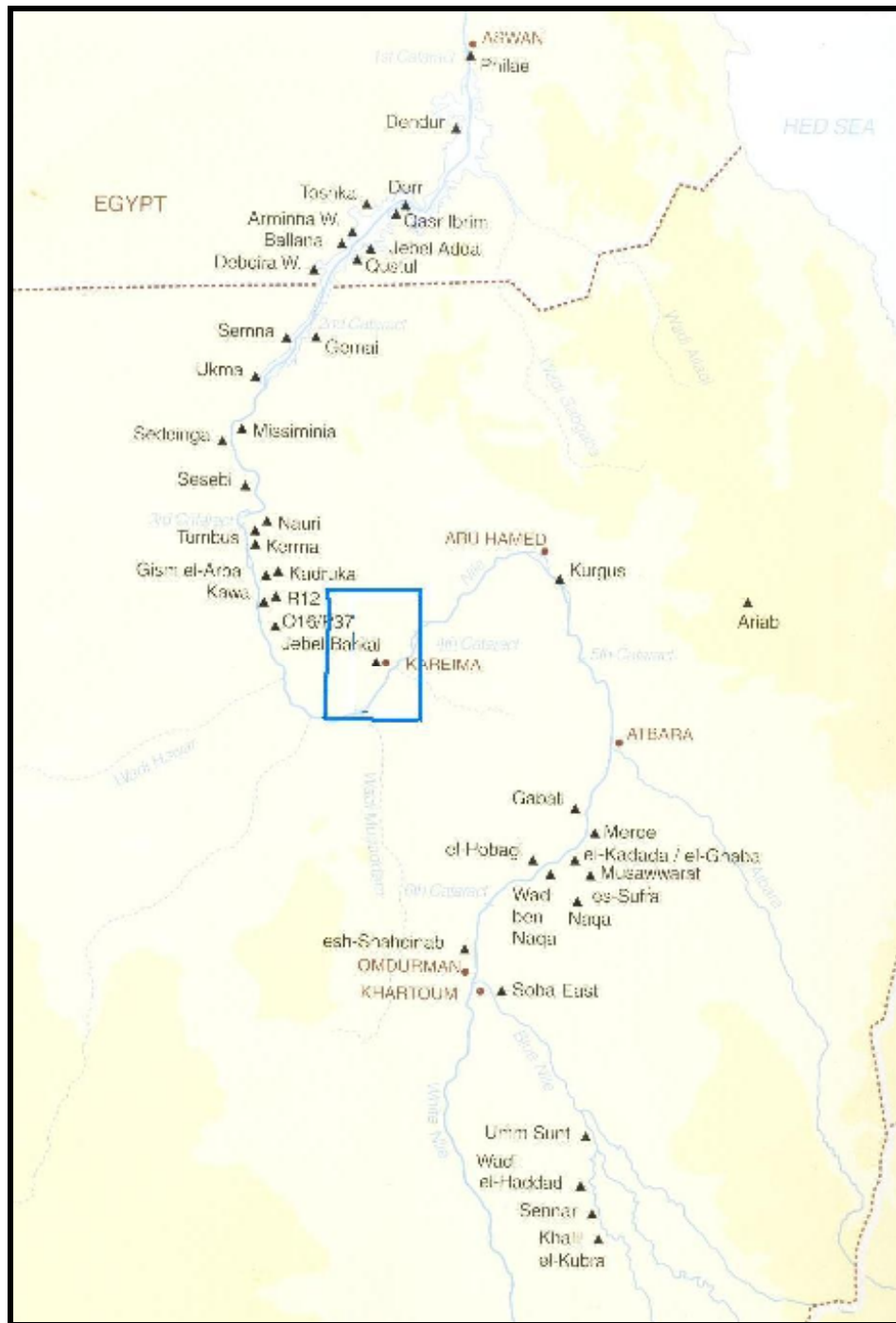
إن المنطقة أسفل الشلال الرابع وحتى دنقلا العجوز كانت مقطونة بواسطة القبائل النوبية ، وقبل سقوط دنقلا العجوز عام ١٣٢٣ بدأت القبائل العربية المهاجرة في الاستقرار في هذه المنطقة، وانصهرت وتعايشت مع القبائل النوبية الموجودة أصلاً في المنطقة ونتيجة لهذا الانصهار برزت القبائل النوبية المستعربة في هذا الاقليم<sup>١</sup> مثل الشايقية والبديرية الدهمشية، واليوم نجد أن التركيبة العرقية لقرية الأرا " متباينة جداً" ففيها الشايقية، الدناقلة، المحس، والذين توافدوا على المنطقة وعلى الولي ود حاج ليتعلموا منه أصول الدين ، ويوجد أيضاً الحسانية الذين بدأوا في الاستقرار على حواف القرية بعد الجفاف الشديد الذي ضرب مناطقهم منذ بداية الثمانينات من القرن الماضي، وعلى الرغم من هذا التباين العرقي في قرية الأرا " إلا أننا نلمس الانسجام والوحدة في ثقافة القرية" فتقافة أهل القرية، ومع أنهم يتحدثون العربية إلا أن هناك العديد من المفردات والمصطلحات النوبية في حياتهم النوبية.

من خلال ما سبق يتضح أن الأرا هو أقدم اسم للمنطقة ، وبما أنه يتطابق و الوصف الذي ذكره نستانس عن مكان ميلاد الأرا فهي بكل تأكيد قد سميت على الملك الأرا مؤسس الأسرة النبتية الحاكمة وقد أطلق عليها هذا الاسم على الأقل خلال أواخر فترة نبتة تمجيداً لجدهم الأرا خاصة وإنما نعرف مدى التمجيد والتقديس الذي ضربه ملوك نبتة على أنفسهم ، قد تحور الاسم لاحقاً إلى الأرا. إذاً بما أن الأرا قد ولد بالمنطقة ودفن بالكرو، وهذا يقودنا إلى عدة حقائق، أولها أن منطقة الأرا كانت واقعة على الأقل تحت سيطرة الزعماء الذين دفنوا في المقابر الباكرا في الكرو والذين كانت ثقافة كرامة وعاداتها النوبية معروفة عندهم، ومن المؤكد أن لهذه المنطقة أهميتها وإلا لما بسطوا سيطرتهم عليها، ولذلك الكرو أيضاً لها أهمية أخرى بخلاف أنها جبانة ملكية.

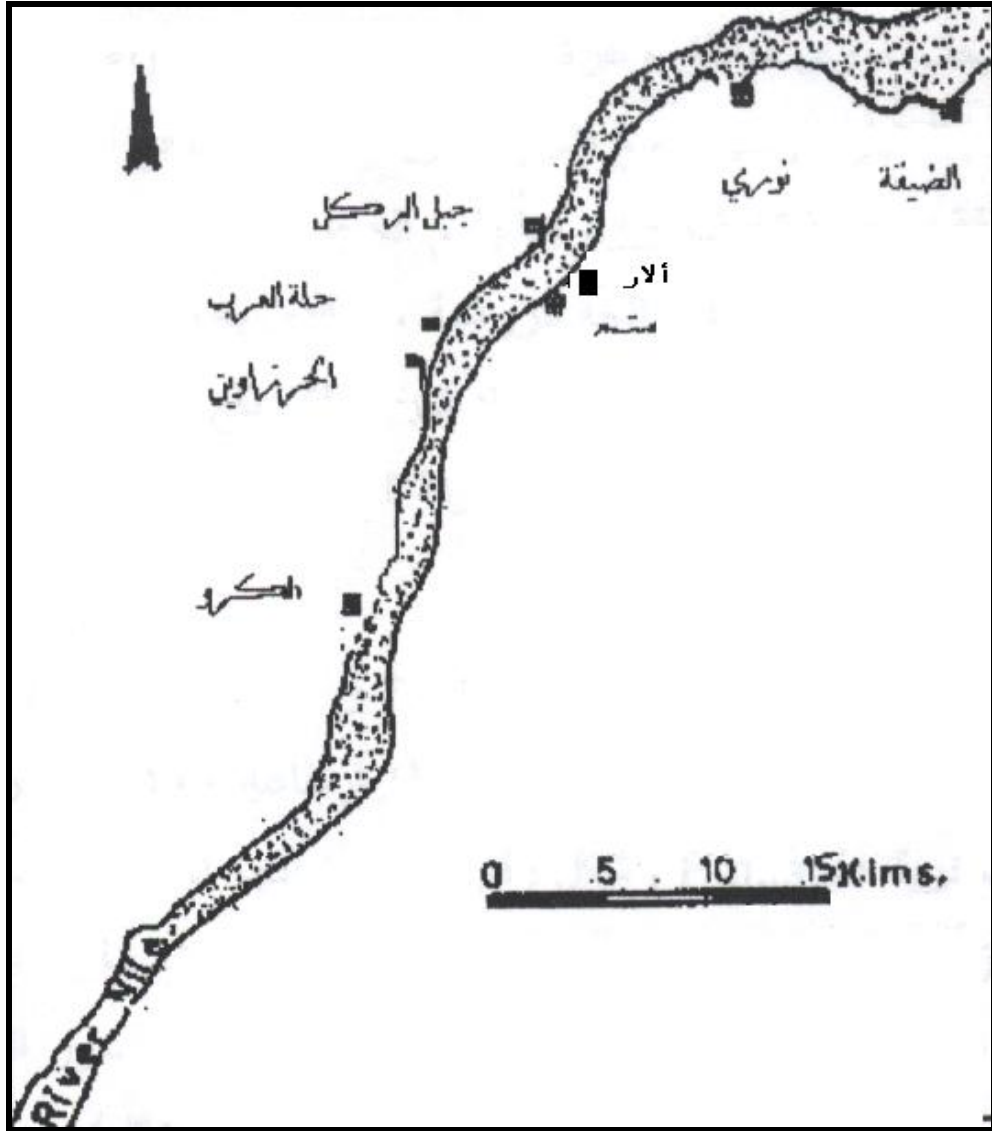
10 Hassan , Y.F.1967. Arabs and the Islam in the Sudan.Edinburgh.

- David.N &Kramer,C. 2001  
Ethnoarchaeology in Action. Cambridge
- Edwards,D.N.2004.  
The Nubian Past: An Archaeology of the Sudan .London.  
1989. Archaeology and Settlement in Upper Nubia in the First Millennium B.C.  
Cambridge\_
- Eide,T.et.al.1996  
Fontes Historiae Nubiorum Vol. II. Bergen
- Hakem,A.M.A. 1988.  
Meroitic Architecture : A background of an African civilization. Khartoum.
- Hassan , Y.F.1967.  
Arabs and the Islam in the Sudan.  
Edinburgh.
- Kendall,T.1984.  
Ethnoarchaeology in Meroitic Studies .  
Rome.
- Reisner,G.A.1966  
“ Black Topped Pottery “. JARCE 5 pp.7-10
- Török,L.1995  
The Birth of an Ancient African Kingdom: Kush And Her Myth of the State in the First Millennium B.C. Lille





الخريطة رقم (١) موقع نبتة



الخريطة رقم (٢) موقع اللار بالنسبة للمواقع النبتية